الملتقى الوطني الأول للقرآن الكريم: جهود الإمام عبد الحميد بن باديس في خدمة القرآن الكريم تعليما وتفسيرا يوم: 10 ماي 2025 جمعية الإمام عبد الحميد بن باديس للقراءات وعلومها المنعقد بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

The First National Conference on the Holy Qur'an

The Efforts of Imam ʿAbd al-Ḥamīd Ibn Bādīs in Serving the Holy Qur'an through Teaching and Exegesis
May 10, 2025 Organized by the Imam ʿAbd al-Ḥamīd Ibn Bādīs Association for Qur'anic Readings and Sciences Hosted at Emir Abdelkader University of Islamic Sciences

عنوان المداخلة:

جوانب التجديد في تفسير ابن باديس: بين الالتزام بفهم السلف واستيعاب قضايا العصر

The First National Conference on the Holy Qur'an

Paper Title:

Aspects of Renewal in Ibn Bādīs's Qur'anic Exegesis: Between Adherence to the Understanding of the Salaf and Engagement with Contemporary Issues

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان كيفية توفيق الإمام عبد الحميد بن باديس بين منهج السلف في تفسير القرآن الكريم وبين استيعاب واقع الأمة العقدي والاجتماعي، من خلال إبراز مظاهر التجديد في تفسيره، وتحليل القضايا العقدية والاجتماعية التي تناولها. ويخلص إلى أن تفسير ابن باديس أسهم إسهاما محوريا في إحياء الهوية الإسلامية، وبعث روح المقاومة الفكرية والثقافية، ودعم مسيرة النهضة في المجتمع الجزائري خلال مرحلة تاريخية شديدة الحساسية.

Abstract :

This study aims to explain how Imam ʿAbd al-Ḥamīd Ibn Bādīs reconciled the Salafi approach to Qur’anic interpretation with an understanding of the doctrinal and social realities of the Muslim community. It highlights the elements of renewal in his tafsīr and analyzes the theological and social issues he addressed. The study concludes that Ibn Bādīs’s interpretation played a pivotal role in reviving Islamic identity, fostering intellectual and cultural resistance, and supporting the renaissance of Algerian society during a critically sensitive historical period

مقدمة:

انطلق الإمام عبد الحميد بن باديس في تفسيره لآيات الذكر الحكيم من منهج علمي راسخ، يستند إلى أصول التفسير بالمأثور، ويرتكز على مرجعية أهل السنة والجماعة في الفهم والاستدلال.

ومشروع الشيخ التفسيري لم يقتصر على حدود التلقّي، بل امتد إلى تفعيل معاني القرآن الكريم في واقع استعماري قاهر، فاتّخذه منطلقا لإصلاح العقيدة، وبناء الوعي، ومواجهة محاولات التغريب والتميع الثقافي التي استهدفت المجتمع الجزائري؛ فكان لتفسيره أثر محوري في بعث الوعي الديني والوطني، وإحياء روح المقاومة الفكرية والثقافية لدى الشعب الجزائري.

ويهدف هذا البحث إلى بيان كيف استطاع المفسر أن يوفّق بين الالتزام بفهم السلف الصالح في تفسيره، وبين استيعاب واقع الأمة في جوانبها العقدية والاجتماعية.

وتتمثل الإشكالية الرئيسية في هذا البحث في السؤال الآتي: كيف تمكّن ابن باديس من الجمع بين منهج السلف في تفسير القرآن الكريم، وبين التفاعل مع واقع الأمة الجزائرية تحت الاستعمار، بحيث أصبح تفسيره وسيلة لإصلاح الفكر والعقيدة، والتأثير في المجتمع المسلم في فترة كانت فيها الأمة بأمسّ الحاجة إلى النهوض؟

وانطلاقا من هذه الإشكالية، يتناول هذا البحث الموضوع من خلال الخطة الآتية:

- المطلب الأول: عناية ابن باديس بالتجديد في تفسيره.
- المطلب الثاني :جوانب التوفيق بين فهم السلف واستيعاب الواقع.

1. الجانب العقدي
2. الجانب الاجتماعي

ومن خلال هذه الدراسة، نسعى إلى إبراز الدور الفاعل للشيخ عبد الحميد بن باديس كمفسر ومجدد، وبيان أثر تفسيره في بناء الهوية الإسلامية، وكيف ساهم في نشر الوعي الديني والاجتماعي بين الجزائريين في مرحلة تاريخية حرجة، كانت تتطلب وعيا عميقا وعودة جادّة إلى معاني القرآن الكريم.

المطلب الأول: عناية ابن باديس بالتجديد في تفسيره للقرآن الكريم.

لقد مثّلت تجربة الشيخ عبد الحميد بن باديس [1] التفسيرية ركيزة أساسية من ركائز مشروعه الإصلاحي الشامل، حيث لم يتعامل مع التفسير على أنه مجرد نشاط علمي تقليدي أو بيان لغوي وعقدي للآيات، وإنما اتخذه وسيلة فعالة لبناء وعي ديني، وثقافي، ووطني، قادر على مقاومة الانحرافات العقدية والاستعمار الثقافي الذي كانت تعانيه الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي.

لقد واجهت الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (1830–1962) تحديات وجودية مسّت المجتمع في عمقه الديني واللغوي والثقافي، حيث سعت سلطات الاحتلال إلى طمس الهوية الإسلامية، ومحاربة التعليم الشرعي، ونشر الجهل والخرافة؛ وكان من أبرز أساليب المقاومة التي انتهجها ابن باديس توظيف القرآن الكريم في بعث نهضة إسلامية متجذرة في أصولها، متصلة بواقعها، مستشرفة لمستقبلها [2].

ومن هنا برزت عنايته بالتجديد في تفسيره للقرآن الكريم [3]، على عدة مستويات:

أولا. الجمع بين أصول التفسير السلفي وحاجة الواقع:

انطلق ابن باديس في تفسيره من أصول منهج السلف، فحرص على بيان معاني الآيات بأقوال الصحابة والتابعين، والاستشهاد بالأحاديث الصحيحة، لكنه لم يكتف بذلك، بل استطرد إلى تنزيل تلك المعاني على الوقائع المعاصرة، مستحضرا مقاصد القرآن الكريم في الهداية والإصلاح.

قال: "عندما يختلف عليك الدعاة، الذين يدعي كل منهم أنه يدعوك إلى الله تعالى، فانظر من يدعوك بالقرآن إلى القرآن، ومثله ما صح من السنة لأنها تفسيره وبيانه، فاتبعه لأنه هو المتبع للنبي ﷺ في

---

(1) _ هو: الشيخ عبد الحميد بن باديس القسنطيني، ولد سنة 1307هـ/ 1889م، والده السيد محمد المصطفى بن مكي، من مؤلفاته التي جمعت له: العقائد الإسلامية، رجال السلف ونساؤه. انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ/ 16 أفريل 1940م. ينظر: آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي، ص72- 73/ الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، أحمد محمود الجزار، ص16.

(2) _ ينظر: آثار عبد الحميد ابن باديس، جمع: عمار طالبي، ج1، ص142.

(3) _ ونعني بالتجديد في التفسير هنا إعادة بعثه وإحيائه، وإعداده بما يلبي حاجات الأمة الإسلامية المتجددة، وأما كلمة "جوانب" أي المجالات المختلفة التي مسها هذا التجديد. ينظر: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، محمد إبراهيم شريف، ط1، 2008، دار السلام، القاهرة، ص119.

دعوته وجهاده بالقرآن، والمتمثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن"[1].

لقد فهم أن القرآن كتاب حياة، لا يقرأ فقط لفهم الأحكام، بل لتفعيل الهداية في النفوس والمجتمعات. وقد عبّر عن ذلك بوضوح بقوله: "أن نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه. وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال. وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا" [2].

ثانيا. جعل التفسير أداة لبناء الوعي ومقاومة الاستعمار:

أدرك ابن باديس أن النهوض بالأمة لا يتم إلا بإعادة ربطها بالقرآن الكريم، فاستثمر دروس التفسير اليومية التي كان يلقيها في الجامع الكبير بقسنطينة، والمنشورة لاحقا في مجلته "الشهاب"، لبثّ الوعي الديني ومواجهة آثار الاستعمار في النفوس.

لقد جعل –رحمه الله– من التفسير منبرا لإحياء القيم الإسلامية، وإصلاح ما أفسدته الطرق الصوفية المنحرفة، وتعزيز الشعور بالانتماء للأمة الإسلامية، لفم يكن تفسيره نخبويا محصورا في طبقة المثقفين، بل جاء بلغة مبسطة يفهمها عامة الناس، موجّهة لعقولهم وقلوبهم معا.

ثالثا. تصحيح المفاهيم الدينية المنحرفة المنتشرة في المجتمع:

من أبرز أوجه التجديد في تفسير ابن باديس تصحيحه للمفاهيم المغلوطة التي سادت المجتمع الجزائري نتيجة تأثير الفكر الطرقي والخرافي، من خلال ضرب أمثلة معاصرة يفهمها الناس، ويشعرون بأنها تعالج واقعهم مباشرة.

رابعا. البعد المقاصدي للتجديد في التفسير:

لم يكن ابن باديس مفسرا يكتفي باستنباط الأحكام، بل كان يتجه دوما نحو غايات القرآن الكبرى،

---

(1) _ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص189.

(2) _ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص181.

مثل التوحيد، والإصلاح، والتغيير، وبناء الأمة؛ فجعل تفسيره أداة لبناء الإنسان المسلم المتوازن، المستنير بالوحي، والمندمج في واقعه، والساعي إلى تغييره بالوسائل المشروعة. لذلك لم يكن التجديد عنده شكليا أو لغويا، بل جوهريا في الوظيفة والمقصد، حيث جعل من القرآن قوة محركة للمجتمع، لا نصا منزويا في بطون الكتب.

خامسا. دمج التربية بالخطاب التفسيري:

كان التفسير عند ابن باديس وسيلة لتربية الأفراد، لا مجرد شرح نصوص. فقد كان يربط الآية بأثرها التربوي في النفوس: كيف تصلح القلب، وتقوّم السلوك، وتنهض بالأمة؛ فكان ينطلق من الآية لينبه على مرض اجتماعي، ثم يقدم العلاج القرآني، بأسلوب يجمع بين البيان العلمي، والتحريض الإصلاحي.

وبذلك يظهر أن عناية ابن باديس بالتجديد في تفسيره للقرآن لم تكن خروجا عن منهج السلف، وإنما امتدادا له بروح تجديدية تنفتح على الواقع، وتعيد للقرآن دوره في إصلاح الفرد والمجتمع، وهو ما يجعل تجربته التفسيرية نموذجا لمدرسة وسطية جمعت بين الأثر والبصيرة، وبين الاتباع والاجتهاد، وبين فقه النص وفقه الواقع[1].

المطلب الثاني: جوانب التوفيق بين فهم السلف واستيعاب الواقع.

عُرف الشيخ عبد الحميد بن باديس –رحمه الله– بتعلقه العميق بكتاب الله، فكان تفسيره للقرآن تعبيرا صادقا عن فهم راسخ، وتدبر دقيق، واستنباط إصلاحي واع؛ لم يكن يفسر القرآن بمعزل عن محيطه، بل كان متبصرا بعلل واقعه، مدركا لما آل إليه حال المسلمين من فتور في التمسك بالدين، ومن ضياع سببه شيوع تأويلات فاسدة للقرآن الكريم، حذّر منها مرارا، مؤكدا أن الرجوع إلى القرآن الكريم لا يكون نافعا إلا إذا تم وفق منهج سليم مستند إلى اللغة والسنة وفهم السلف.

قال رحمه الله: "لقد ظهرت في عصرنا هذا أقاويل في تفسير القرآن الكريم، أقاويل لا تعبر عن فهم صحيح لدلالة القرآن ولا تستند إلى قواعد البلاغة، ولا تعتمد على تفسير السلف الصالح، فهنالك من تناول القرآن بعقول لا تراعي في فهمه ضوابط اللغة العربية، ولا تستند إلى أسس من السنة النبوية الصحيحة، فنتج عن ذلك تأويلات مغلوطة وأفكار دخيلة تُشوش على الفهم الصحيح للنصوص القرآنية،

---

(1) _ ينظر: البعد الإصلاحي في تفسير ابن باديس، بوحجار، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2018، ص101/ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي في الجزائر، عبد الله بوعزيز، د.ط، 2006، دار الأمة، الجزائر، ص77.

وقد انتشرت هذه التأويلات بين الناس وأصبح لها قبول عند العامة وأشباه العامة، في حين أن القرآن الكريم لا يمكن أن يُفهم إلا من خلال استنباط معانيه بما يتوافق مع النصوص الصحيحة واللغة العربية السليمة"[1].

ويقول: "لقد بات من المؤسف أن هناك من يفسرون القرآن بعقول لا تتحلى بمقتضيات العلم الشرعي، ولا يُراعون في تفسيرهم قوانين البلاغة، ولا يلتزمون بمنهج السلف في فهم النصوص، فظهر بذلك تفسيرات بعيدة عن الفهم الصحيح، ونشأت آراء مغلوطة تحت اسم التفسير، بينما القرآن الكريم ليس محلا للأهواء والتفسيرات المتجزأة؛ ومن هنا كان لزاما على كل مفسر أن يكون على دراية عميقة بالنصوص الشرعية، وأن يتجنب الغلو في التأويلات، وأن يلتزم بما ورد عن السلف الصالح ليكون تفسيره موجها لخدمة الإسلام ورفع الوعي بين الناس" [2].

وقد حرص مفسرنا على التوفيق بين فهم السلف واستيعاب قضايا عصره، وسنقف في هذا المطلب عند أبرز مجاليْن ظهرت فيهما ملامح هذا التوفيق:

أولهما الجانب العقدي، حيث واجه الانحرافات والخرافات المنتشرة بتصحيح المفاهيم العقدية على ضوء الكتاب والسنة.

وثانيهما الجانب الاجتماعي، حيث قدّم تفسيرا واقعيا لمعالجة آفات المجتمع وتوجيهه نحو الإصلاح والاستقامة.

1. الجانب العقدي:

كان الجانب العقدي في تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس محورا أساسيا في مشروعه الإصلاحي، حيث سعى إلى تصحيح المفاهيم العقدية التي شابها الانحراف والبدع، مستندا إلى منهج السلف الصالح في فهم النصوص، ومراعيا في الوقت ذاته واقع الأمة الجزائرية تحت وطأة الاستعمار الفرنسي؛ فقد أدرك أن إصلاح العقيدة هو الخطوة الأولى نحو نهضة الأمة واستعادة هويتها الإسلامية.

---

[1] _ آثار ابن باديس، ج10، ص24.

[2] _ آثار ابن باديس، ج10، ص24.

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في بيان أهمية تصحيح العقيدة وفق القرآن ومنهج السلف: "أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير... فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم، إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم، ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله"[1].

وهذا يؤكد أن ابن باديس قد جعل من إصلاح العقيدة أساسا لمشروعه الإصلاحي، منطلقا من فهم السلف، ومستحضرا واقع شعبه الذي مزقته الجهالات والانحرافات في ظل الاستعمار.

وقد ربط ابن باديس بين ضعف العقيدة الإسلامية وبين الاستعمار الفرنسي، معتبرا أن الاستعمار سعى إلى إفساد عقيدة المسلمين لتسهيل السيطرة عليهم.

لذا دعا إلى تصحيح العقيدة كخطوة أولى في مقاومة الاستعمار، قائلا: "لا نجاة لنا من هذا التِّيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه، إلاّ بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه، وفي السنّة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحّة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين"[2].

هذا القول يظهر بوضوح أن ابن باديس كان يؤمن بأن إصلاح العقيدة هو الخطوة الأولى نحو نهضة الأمة واستعادة هويتها الإسلامية، مستندا في ذلك إلى القرآن الكريم ومنهج السلف الصالح، مع مراعاة الظروف التي كانت تمر بها الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، وقد تجلى جمع المفسر بين فهم السلف وقضايا العصر في نقاط منها:

- **الحرص على أخذ العقيدة الصافية من القرآن والسنة وربطها بواقع الأمة:**

كان المفسر يقف على الآيات الت تحمل معاني الإيمان والتوحيد، فيعمد على تفسيرها وفق منهج السلف ثم يستطرد لينقل معناها إلى واقع الأمة لوعظ المخاطبين وتبصيرهم بحالهم.

قال –رحمه الله-: "شفاء العقائد والأخلاق أساس الأعمال والمجتمع، هذه الأمراض لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها. ولا شفاء لها إلاّ بالقرآن، والبيان النبوي راجع إلى القرآن. ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلاّ مرضا.فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها،

---

(1)_ آثار ابن باديس، ج10، ص24.

(2)_ آثار ابن باديس، ج1، ص233.

ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعر منها الأبدان.وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق، مثل أولئك؛ وما ذلك إلاّ لأنهم داووا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام"[1].

- **إيضاح المعاني التي دلت عليها الآيات وتدعيمها بالأحاديث الصحاح، ودحض المعاني الشائعة وبيان مفاسدها وبعدها عن تعاليم الإسلام:**

فنجده مثلا عن حديثه عن التوكل يحاول تصحيح مفهومه الذي شاع بين السواد الأعظم من الشعب الجزائري عن طريق أرباب الحركات الطرقية.

عند تفسيره لقوله تعالى: "ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين" ، يقول: تنبيه على وهم: "ليس الفرار من الأمراض بمعالجتها ومن المصائب بمقاومتها فرارا من الله؛ لأن الأمراض هو قدّرها والأدوية هو وضعها، ودعا إلى استعمالها، والتعالج بها، وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مقاومتها، فكلها منه بقدره، والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم، فما فر من قدره إلاّ إلى قدره.ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر-رضي الله عنهما -في قصة الوباء: "أفرارا من قدر الله يا عمر؟ قال عمر :نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله" وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق إلى الله يرجو منه الخير في غيره" [2].

فقد فسر الآية ليرد على لمفهوم الخاطئ للزهد والتوكل المنتشر عند المتصوفة، القائلين بترك الأسباب وانتظار الرزق بلاسعي، مبينا ان ذلك ضلال عن الشريعة وجهل بالسنة.

ثم يقول: تحذير من جهالة: "ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل، وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت، ورغد العيش، وتوسيع العمران، وتشييد المدنية.بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها، وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه، والدخول تحت شرعه كما قدمناه.وقد ضل قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة، فعطلوا الأسباب، وخالفوا الشريعة، وحادوا عما ثبت من السنة، وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله؛ سئل عن القائل: أجلس لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي؛ فقال: "هذا رجل جهل العلم: أما سمع قول النبي ﷺ :إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي "؛ وقوله: تغدو خماصًا وتروح بطانا، كان الصحابة يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم وبهم

---

[1]_ مجالس التذكير، ص144.

[2]_ مجالس التذكير، ص362.

القدوة"[1].

وقد كانت هذه المفاهيم رائجة في المجتمع الجزائري في عصر ابن باديس بسبب الأفكار التي كان يغرسها أرباب الطرق الصوفية في أتباعهم ومريديهم، وقد أثرت بشكل كبير على في المجتمع.

وصفوت القول في ذلك: أن المفسر رحمه الله –اعتمد في تفسيره للآية على منهج السلف القائم على الاستدلال بالأثر، حيث استشهد بالأحاديث النبوية الصحيحة وأقوال الصحابة لإيضاح المعنى الصحيح للفرار إلى الله، مبينا أن الفرار لا يعني الهروب من الأقدار أو ترك الأسباب، بل هو انتقال من قدر الله إلى قدره، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، كما ورد في قصة عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة في واقعة الطاعون؛ غير أن ابن باديس لم يقف عند هذا الحد التفسيري، بل اجتهد في تنزيل هذه الآية على واقع مجتمعه الجزائري في عصره، حيث كانت مفاهيم الزهد والتوكل قد انحرفت بفعل تأثير الطرق الصوفية، فصحّح هذه المفاهيم ببيان أن ترك العمل وطلب الرزق لا يُعد فرارا إلى الله، بل هو تعطيل للشريعة ومخالفة لهدي النبي ﷺ. ثم ضرب لذلك مثالا واقعيا معاصرا، حين بيّن الفرق بين طائفتين من الناس: إحداهما اتخذت السلطان ملاذا لها، والأخرى لجأت إلى الله وحده، لتكون الثانية هي النموذج الحقيقي لمن فرّ إلى الله. وبهذا يحقق ابن باديس صورة متكاملة من التجديد: فهم الآيات في ضوء الأثر، وربطها بسياق اجتماعي حيّ، ومعالجة الانحرافات العقدية والسلوكية المنتشرة بين الناس، دون أن يخرج عن أصول التفسير السلفي في ضبط المعنى بالأحاديث الصحيحة وسيرة السلف الصالح.

- **تصحيح مفهوم التوحيد ومحاربة الغلو في الصالحين:**

من أبرز النماذج التي يُجسّد فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس منهج التوفيق بين أصول السلف وواقع عصره، تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: 5]، حيث قرر بأسلوب واضح أصل التوحيد الخالص الذي دعا إليه السلف، وهو إفراد الله بالعبادة والاستعانة، مقرّا أن الحصر المستفاد من تقديم المعمول في الآية يدل على قصر العبادة والاستعانة على الله وحده لا شريك له. وانطلاقا من هذا التأصيل، انتقد الشيخ –رحمه الله– مظاهر الانحراف العقدي التي انتشرت في المجتمع الجزائري آنذاك، ومنها الاستغاثة بالأولياء وطلب النفع والضر منهم، محذرا من خطورة هذه الممارسات التي تلبست بلبوس الدين،

---

[1]_ مجالس التذكير، ص362– 363.

وموضحا أنها من جنس الشرك الذي يناقض جوهر العقيدة الإسلامية.

وقد نوّه ابن باديس بأن هذه السلوكات العقدية الخاطئة لم تكن مجرد أخطاء فردية، بل كانت نتيجة تراكمات فكرية غذّتها الطرق الصوفية التي كانت سائدة في بيئته، والتي أسهمت في صرف الناس عن حقيقة التوحيد إلى مظاهر من التقديس والغلو تتعارض مع العقيدة الصافية التي دعا إليها القرآن والسنة. يقول في هذا السياق: "فليس من التوحيد أن تقول: يا عبد القادر، يا سيدي فلان، بل هو من الشرك المخرج من الملة إذا اعتقد صاحبه الضر والنفع في غير الله[1]"

ثم يسوق حديث النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله[2]، ليدعم به فهمه للآية، مُظهرا بذلك منهج السلف القائم على الاستدلال بالقرآن والسنة في تقرير مسائل العقيدة، مع تنزيلها على واقع الناس بأسلوب إصلاحي هادف.

ويُعدّ هذا النموذج دليلا على المنهج التفسيري المتجدد عند ابن باديس، الذي لم يفصل بين الفهم السلفي للنصوص، وبين وعيه الاجتماعي والثقافي، بل سعى إلى تحرير التوحيد من شوائب الخرافة، وجعل من تفسيره أداة فعّالة لتصحيح العقيدة، وبناء وعي ديني راشد، يحرّر الإنسان من التبعية العمياء، ويعيده إلى مقام العبودية الخالصة لله تعالى.

من خلال هذه التفسيرات، يتضح أن الشيخ عبد الحميد بن باديس جمع بين التمسك بمنهج السلف اصالح في فهم العقيدة، وبين استيعاب واقع مجتمعه تحت الاستعمار، مما جعل تفسيره للقرآن الكريم أداة فعالة في إصلاح العقيدة ومقاومة الاستعمار.

2. الجانب الاجتماعي:

أولى الشيخ عبد الحميد بن باديس اهتماما بالغا بالجانب الاجتماعي في تفسيره للقرآن الكريم، مدفوعا بإيمانه بأن القرآن كتاب هداية وإصلاح شامل، وأن مهمة المفسر لا تقتصر على الشرح اللغوي أو العقدي المجرد، بل تمتد لتشمل معالجة ما يعانيه المجتمع من مشكلات أخلاقية وسلوكية، خاصة في ظل التحديات التي فرضها الاستعمار الفرنسي.

وقد وُفّق بين التزامه بمنهج السلف في فهم مقاصد الآيات، وبين وعيه العميق بمتطلبات الواقع

---

[1]_ آثار عبد الحميد بن باديس، ت عمار طالبي، ط5، 2005، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ج1، ص88-89.

[2]_ سنن الترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: ما جاء في حفظ وصية النبي ﷺ لابن عباس، رقم: 2516.

الجزائري، وقد تجلى ذلك في عدة مواضع:

– محاربة الظلم الاجتماعي والتحذير من الركون إلى المستعمر:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[هود: 113]، استند ابن باديس إلى ما قرره السلف من عموم الظلم والنهي عن الميل إلى الظالمين، كما قال ابن كثير: "هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يركنوا إلى الكفار، يعني لا تستعينوا بهم ولا تتشبهوا بهم ولا تودوهم"[1]، ثم نزّل الآية على واقع الاستعمار الفرنسي، محذرا من الخضوع له أو السكوت عن مظالمه. قائلا: "فتعمّ الآية كل ظالم... فلا يجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم"[2].

وهنا يظهر بوضوح جمعه بين المعنى السلفي للآية وبين التوجيه الواقعي، محذرا من التواطؤ الصامت مع الظالم باسم السلم أو المداراة.

– تعزيز مبدأ الأخوة الإسلامية لمعالجة التمزق الاجتماعي:

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: 10]، سار ابن باديس على ما قرره الطبري من أن "المؤمنين إخوة في الدين، توجب الأخوة عليهم التراحم والتعاطف والتناصح"[3]، لكنه لم يكتف بالتقرير العقدي، بل ربطه بواقع التفرق الاجتماعي بين قبائل الجزائر آنذاك، فقال: "القرآن جاء لبناء الأمة على أساس العقيدة والإخاء، فإذا انعدمت الأخوة وتفرقت الكلمة، ذهبت الأمة وأصبحت غثاء كغثاء السيل"(4) فهو يفعّل المعنى السلفي للآية في سياق تربوي اجتماعي يدعو إلى الوحدة ونبذ العصبية.

– نقد التواكل باسم الدين والدعوة إلى سنن التغيير:

في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾[الرعد: 11]، وافق ابن باديس ما ذهب إليه السلف من أن هذه الآية تجسّد سنن الله الثابتة في التغيير، كما قال الرازي: "لا يغير نعمة قوم حتى يغيروا طاعتهم بمعصية"(5)، ثم ربطها بواقع المسلمين المستكينين للذل تحت الاستعمار دون مقاومة، فقال: "فلا يفتتن

---

(1) _تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: سامي سلامة، ط2، 1999، دار طيبة، ج2، ص566 .

(2) _ مجالس التذكير، ص136.

(3) _ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، ج22، ص287 .

(4) _ آثار ابن باديس، ج4، ص142 .

(5) _ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، ط3، ج18، ص143 .

المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم، فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم، ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة، وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم، وما صاروا من أهل القسم الثالث إلا لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم .. فلا لوم إذا– إلا عليهم في كل ما يصيبهم"[1].

– التأكيد على التربية الأسرية في بناء الأمة:

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم: 6]، تبنّى تفسير السلف كقول عليّ بن أبي طالب: "علموهم وأدّبوهم"(2)، غير أنه وظّف الآية للتأكيد على دور المرأة في التربية الأسرية، وهي قضية ملحّة في ظل حملات التغريب آنذاك. فقال: "علينا أن نكمّل النساء تكميلا دينيا... ليكنّ مهيّآت لإعداد الكاملين من الرجال"(3)، فجمع بذلك بين التأصيل التربوي السلفي والرؤية الإصلاحية الواقعية لمجتمع مهدّد في هويته.

يتضح من خلال هذه النماذج أن ابن باديس –رحمه الله– قدّم تجربة تفسيرية أصيلة ومجددة، وُفّق فيها إلى الجمع بين التزامه بمنهج السلف في بيان معاني الآيات، وبين استيعابه العميق لظروف مجتمعه الجزائري تحت الاستعمار؛ لم يكن تفسيره مجرد استحضار للتراث، بل كان تنزيلا حيا للقرآن على قضايا العصر، يعكس وعيا وظيفيا للقرآن الكريم بوصفه مصدرا للهداية والإصلاح الحضاري؛ وهذه المزاوجة بين الأصالة والواقعية هي ما جعلت تفسيره مدرسة قائمة بذاتها في التجديد.

---

[1]_ آثار ابن باديس، ج1، ص202 .

[2]_ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، ج8، ص230.

[3]– آثار ابن باديس، ج3، ص93.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب البحث، يمكن إجمال أهم ما توصلنا إليه في نقاط ولعل من أهمها:

- ✓ أن ابن باديس –رحمه الله – سعى لإحياء معاني القرآن الكريم وربطها بحاجات الأمة وهموم واقعها.
- ✓ اعتمد المفسر على منهج سلفي أصيل في تفسير القرآن الكريم، مع التركيز على تطبيقه في الواقع.
- ✓ وُفق بن باديس في الجمع بين فهم السلف الصالح واستيعاب الواقع الجزائري في تفسيره.
- ✓ سعى المفسر في الجانب العقدي، سعى لتصحيح المفاهيم العقدية ومحاربة البدع والانحرافات.
- ✓ أكد المفسر في الجانب الاجتماعي على دور الأسرة، وكذا التربية، والعدالة في بناء المجتمع.
- ✓ حرص على أن يكون تفسيره ليس مجرد فهم للآيات، بل وسيلة لتوجيه الأمة نحو الإصلاح ورفع الظلم والجهل.
- ✓ شكل تفسيره لبنة مهمة في التجديد التفسيري المنضبط، حيث جمع بين الأصالة في المنهج، والواقعية في التنزيل، بعيدا عن الانبهار بالغرب أو الجمود على التقليد.